

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[304] الآية التي تليها تبدأ من توحيد الربوبية وتنتهي بتوحيد الخالقية والربوبية. فتقول أو لا: (ذلكم الله ربكم) و مربكم الذي من صفاته أنّه: (خالق كل شيء). ولا معبود إلا الله: (لا إله إلا هو). في الواقع إن وجود كل هذه النعم دليل على الربوبية والتدبير، وخالق كل شيء عنوان لصفة التوحيد في الربوبية، لأن الخالق هو المالك والمربي. ومن المعلوم أن الخلق يستدعي الرعاية الدائمة لأن الخالق لا تعني أن الله يخلق الخلق ويتركها وشأنها، بل لا بد وأن يكون الفيض الإلهي مستمرا في كل لحظة على جميع الموجودات. ولذلك فهذه الخالقية لا تنفصل عن الربوبية. ومن الطبيعي أن هذا الإله هو الوحيد الذي يستحق العبادة، وأن ترجع إليه الأشياء. لذا فإن جملة (خالق كل شيء) تعتبر الدليل لـ (ذلكم الله ربكم) وإن (لا إله إلا هو) هي النتيجة لذلك. وتتساءل الآية في نهايتها: كيف يسوغ الإنسان لنفسه الإنحراف والتكبر عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: (فأنسى تؤفكون)(1). ولماذا تتركون عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة الأصنام؟ والملاحظ أن "تؤفكون" صيغة مجهول، بمعنى أنّها تحرفكم عن طريق الحق، وكأنّ المراد هو أن المشركين فاقدون للإرادة الى درجة أنهم يساقون في هذا المسير دون اختيار أي نسبة من الحرية والإرادة والاختيار في هذا المجال! الآية الأخيرة – من مجموعة الآيات التي نبحثها – تأتي وكأنّها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يحدون). "يحدون" مشتقة من مادة "جد" وهي في الأصل تعني إنكار الشيء

1 – "تؤفكون" من "إفك" وتعني الإنحراف والرجوع عن طريق الحق وجادة الصواب. ولهذا السبب يقال للرياح المضادة "المؤفكات". ويعبر عن "الكذب" بـ "الإفك" بسبب ما فيه من انحراف عن بيان الحق.